التصوف والتعبئة القومية

للأستاذ عبد الحفيظ فرغلى القرنى

الأستاذ بدار المعلمات بالزمالك

اتجه المسئولون إلى العناية بالتعبئة القومية ، وأصبح لها مكان مرموق فى المدارس والمعاهد وبقية أجهزة الدولة الأخرى ؛ لما لها من أثر كبير فى النصر على الأعداء وفى التعمير والإنشاء ، وحاجتنا إلى التعبئة فى السلم لا يقل أهمية عن احتياجنا إليها فى الحرب ، فالتعبئة فى الواقع هى حشد الجهود والإمكانيات ، وتجنيد الكفايات للقيام بدوره ونصيبه فى الإنشاء والبناء والجهاد ، خاصة إذا كانت البلاد على أبواب نهضة شاملة فى جميع مرافقها . فالمعلم والطبيب والمهندس والعامل وغير كل منهم مجند للعمل فى سبيل الوطن فى أيام حربه وسلمه على السواء ، وإذا كانت البلاد فى ظروف تشابه ظروفنا الآن ، فقد صبح لزاماً عل كل مواطن أن يجعل من نفسه فداءً ينفذ ما يلقى عليه من تعاليم ، أو يعمل من تلقاء نفسه ما يراه صالحا لتقدم الوطن ونهضته . فقد سبقتنا إلى التقدم دول أصبح من الواجب علينا أن نلحق بها لئلا يفوتنا ركب الحضارة والتقدم ، وقد كان للعوامل الماضية أثر كبير فى ذلك التخلف الذى فرض علينا ، ولن ننتظر من قوم كانوا السبب فى تأخرنا أن يساعدونا على اللحاق بهم أو التقدم عليهم ، فمن الواجب إذن أن يكون اعتمادنا على أنفسنا ، وأن نشق طريقنا بسواعدنا . حقيقه سيكون الطريق شاقا ، ولكن علينا أن نذال المشقات . بإرادتنا وعزمنا وقوة احتمالنا .

ولن يكون هناك معنى للتعبئة دون أن يكون هناك إيمان بالعمل الذى نعبىء من أجله . فالإيمان هو السلاح الوحيد الذى به يستهين المواطن بالخطر ، ويذال الصعب ويستسيغ العمل ولو كان شاقا ، والإيمان بالشىء هو الذى يخلق الإرادة القوية ، ولذلك كانت أول خطوة فى التعبئة هى خلق الروح وبعث الشعور والوجدان .

وقد نجد ذلك من البديهى فإن العمل يكون فاشلا ما لم تكن هناك قوة داخلية تبعث

على القيام به وبدون هـذه القوة يكون احتمال النجاح فى هذا العمل أمراً ضعيفا أو ميئوسا منه . والدليل على ذلك أن هواية الشيء أنجح من احترافه فالرياضى الهاوى مثلا تكثر فرص النجاح أمامه عن الرياضى المحترف ؛ لأن الهواية تصحبها عاطفة الإقبال على الشيء والحرص على النجاح فيه ، والحث الذى يجعل الهاوى مستهينا بما يلقى من صعاب فى سبيل بلوغ غايته ، بل ومضحيا إذا لزم الأمر بكل ما يملك من جهد وقوة ليحقق طموحه ورغبته . أما المحترف فحسبه أن يقوم بما كلفه من عمل لينتظر عليه الشكر والثناء ولا يقبل أى عمل إضافى ما لم يكن هناك أجر يوازيه ، وإلا فالتأفف والتهرب .

وإذن فلابد من خلق هذه الروح الباعثة على العمل ، ولابد من تحويل العمل إلى هواية محبوبة يقبل عليها الشخص بشغف ويؤديها بعناية واهتمام . خلق هذه الروح هو ما نقصده بالتعبئة ، التعبئة الكاملة الشاملة بين جميع الطبقات من العامل الصغير إلى الموظف الكبير .

وليست هذه المهمة سهلة كما نتصورها . ولكنها مهمة شاقة فنحن محتاجون إلى تغيير وعى جيل كامل وإلى إزالة رواسب كثيرة خلقها العهد البائد وإلى محو الأفكار العتيقة ليحل محل كل ذلك وعى جديد ، ومعان تقدمية وأفكار حديثة وروح طموحة خلاقة .

ومما هو جدير بالذكر أن التصوف الإسلامى له شأن بعيد فى ذلك ، فإن التصوف يعنى عناية كبيرة بالأخلاق لأنها هى الطريق الذى يصل منه الإنسان إلى الله سبحانه وتعالى ، وهى المعيار الذى يقاس به بين الرجال ، والتربية الصوفية تربية كاملة فهى تأخذ المريد بالحزم والعزم والقوة ، وتجعله يلتزم الحدود والشرائع ، وتفرض عليه محاسبة نفسه بنفسه ، فهى جهاد متواصل ضد شهواته ولذاته وضد وساوس نفسه وشيطانه ، وهو بهذا ينتصر على الأنانية والطمع والكسل والغش والكذب والجبن وغيرها من الصفات الدنيا ، ويتحلى بالصدق والإخلاص والمسارعة فى الجد وحب الإتقان فى العمل والشجاعة وغيرها من الصفات العليا التى هى الطريق لصالح الفرد والمجتمع ، والتى عليها تبنى الأمم حضارتها ، وتنشىء حاضرها ومستقبلها . وإذا كنا نحن الآن فى حاجة إلى مواطن ينسى نفسه ليذكر وطنه ، ويتفانى فى خدمته ، فإن هذا المواطن لا يكون إلا شخصا تخلق بأخلاق الصوفية ، فأنكر ذاته وقضى على أنانيته وأفنى شهوته وأخذ يعمل فى صمت وهدوء دون أن يحس به أحد ، وإننا لنجد ذلك فى صفحات التاريخ أيام المسلمين الأوائل الذين يعتبرهم أهل التصوف

قدوة لهم وأئمة يحتذون حذوهم ويسيرون على نهجهم ، هؤلاء هم المجاهدون الذين عبأوا جهودهم ووصلوا ليلهم بنهارهم ولم يملوا العمل حتى أثمرت هذه الجهود ثمارها المرجوة ، وكانوا فى أوقات سلمهم وحربهم على السواء . بل إن جهادهم فى أيام السلم أطلق عليه الرسول صلى الله عليه وسلم إسم الجهاد الأكبر لأنه جهاد عدو غير منظور ، جهاد الأثرة وحب الذات ، جهاد الرغبة فى السيطرة والتملك ، جهاد التواكل والقعود عن العمل والتفريط فيه . إلى غير ذلك من الأدواء التى تقعد بالفرد عن الوصول إلى المثل العليا الكاملة التى وصفها الإسلام ، ليسير على حذوها المسلمون ، وجعل رائدهم فيها الرسول العظيم الذى نزل فى حقه . . . وإنك لعلى خلق عظيم . . ، ولفت المسلمون إليه فقال لهم : لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا . .

بالأخلاق الصوفية بنت الدولة الإسلامية قديما أركانها وشادت حضارتها ، فقد كان المسلمون وقتئذ يتنافسون فى مكارم الأخلاق ، ويجاهدون لأن تكون كلمة الله هى العليا ، ويقوم كل فرد منهم بعمله عن رغبة صادقة فى النفع العام وفى النهوض بشأن هذه الدولة الإسلامية العظيمة ، ليعتقد كل منهم أنه مسئول عن تمام هذا البنيان فلا مجال بينهم للحقد او التضاغن أو التواكل أو الخذلان والتثبيط . الكل سباق فدائى باذل مضح بنفسه وأهله وولده فى سبيل هذه الدعوة الكريمة العظيمة . ومن أجل ذلك انتصرت مبادئها ، وفى وقت وجيز تمكن هؤلاء المسلمون أن يفتحوا أقوى مملكتين فى العالم (فارس والروم) وأصبحوا قدوة ومثلا عليا فى تواضعهم الجم وحلمهم العظيم وإخلاصهم القوى وشجاعتهم النادرة وتقواهم التى كانت مضرب الأمثال والتى لا تزال معينا صافيا يستمد منه التصوف مثله وأخلاقه .

فإذا ما أردنا الآن أن نقوى روح العمل بين المواطنين . وندفعهم إلى الإخلاص والتفانى فى خدمة الوطن فإنما نذكرهم برسالة التصوف التى أخذ على عاتقه أداءها من قديم الزمان ، ومخطىء من يظن أن التصوف فى عزلة عن المجتمع ، فليس التصوف مسئولا عن الدخلاء الذين استغلوا اسمه وشوهوا صورته ، التصوف عمل وجهاد ومثابرة ، التصوف تقوى وورع ، التصوف مراعاة الله فى كل صغيرة وكبيرة ، التصوف قضاء على الأنانية ومحاربة للشهرة الكاذبة والإدعاء الممقوت ، التصوف رغبة صادقة فى الوصول إلى الكمال ، التصوف روح وثابة محلقة فى السماء .

لقد استمد التصوف مبادئه من الكتاب والسنة والسلف الصالح . والكتاب

يقول : « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » . والحديث الشريف يقول : « لغدوة أو روحة فى سبيل الله خير من الدنيا وما فيها » « إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه » . والسلف الصالح رضوان الله عليهم كانوا شعلة لا تنطفىء من العمل والجهاد والسعى فى سبيل رفعة الأمة الإسلامية وسعادتها . حتى قال أبو بكر أيام انتقاض المرتدين .. والله لو منعونى عقال بعير كانوا يؤدونه لرسول الله لقاتلتهم عليه ، وجهز الجيوش ، ومشى راجلا فى توديعها ، وعقد الألوية للجهاد ، وشجع على الغزو والفتوح ، واحتذى الخلفاء الراشدون من بعده حذوه ، فكانوا جميعا مثلا كريما فى الجد والعمل ، وإذن فرسالة التصوف رسالة تعمير وبناء تستهدف سعادة المسلمين ورفعتهم ، وتعمل على نهضتهم ونصرتهم عن طريق التحلى بالأخلاق الكريمة وتقوية صلة الإنسان بالله والاستهداء بهدى رسوله الكريم الذى بعثه الله ليتمم مكارم الأخلاق .

ليس غريباً إذن أن يكون للتصوف الإسلامى أثر كبير فى التعبئة القومية بين المواطنين ، وهو جدير بهذه المكانة ؛ لأنه رافع لوائها ، ومتقدم صفوفها ، ومعبد طريقها من قديم .

وليس غريباً على فكرة نبعت من صميم هذا الدين القويم بأن ترفع شأن أصحابه ؛ وتصل بهم إلى الله سبحانه وتعالى ، وتطهرهم مما علق بهم من أوزار هذه الدنيا ووساوس شيطانهم وشهواتهم . أن تكون أداة توجيه ليصلوا حاضرهم المجيد بماضيهم التليد . ؟